اللمعة التاسعة عشرة

«رسالة الاقتصاد»

(هذه الرسالة تحضّ على الاقتصاد والقناعة وتحذّر من مغبة الاسراف والتبذير).

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

﴿ وكُلوا واشربُوا وَلا تُسرِفُوا ﴾ (الاعراف: ٣١)

(هذه الآية الكريمة تلقّن درساً في غاية الاهمية وترشد إرشاداً حكيماً بليغاً بصيغة الأمر الى الاقتصاد، ونهي صريح عن الاسراف. تتضمن هذه المسالة سبع نكات).

النكتة الاولى

ان الخالق الرحيم سبحانه يطلب من البشرية شكراً وحمداً إزاء ما اغدق عليها من النعم والآلاء، الاّ ان الاسراف منافٍ للشكر واستخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة، بينما الاقتصاد توقيرٌ مربح ازاء النعمة.

اجل! إن الاقتصاد كما هو شكر معنوي، فهو توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والاحسان.. وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار.. وهو مدار صحة الجسد كالحِمية.. وهو سبيل الى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي.. وهو وسيلة قوية لإحساس ما في النعم والآلاء من لذة.. وهو سبب متين لتذوق اللذائذ المخبأة في ثنايا نعمٍ تبدو غير لذيذة.. ولكون الاسراف يخالف الحِكَم المذكورة آنفاً باتت عواقبه وخيمة.

النكتة الثانية

لقد خلق الفاطر الحكيم جسم الانسان بما يشبه قصراً كامل التقويم وبما يماثل مدينة منتظمة الاجزاء، وجعل حاسة الذوق المغروزة في فمه كالبّواب الحارس، والاعصاب والاوعية بمثابة اسلاك هاتف وتلغراف (تتم خلالها دورة المخابرة الحساسة بين القوة الذائقة والمعدة التي هي في مركز كيان الانسان) بحيث تقوم حاسة الذوق تلك إبلاغ ما حلّ في الفم من المواد، وتحجز عن البدن والمعدة الاشياء الضارة التي لاحاجة للجسم لها قائلة: «ممنوع الدخول» نابذةً اياها، بل لاتلبث أن تدفع وتبصق باستهجان في وجه كل ما هو غير نافع للبدن فضلاً عن ضرره ومرارته.

ولما كانت القوة الذائقة في الفم تؤدي دور الحارس. وان المعدة هي سيدة الجسد وحاكمته من حيث الادارة، فلو بلغت قيمة هدية تُقدَّم الى حاكم القصر مائة درجة فان خمساً منها فقط يجوز أن يعطى هبةً للحارس لا اكثر، كيلا يختال الحارس وينسى وظيفته ويقحم في القصر كل مخلّ عابث يرشوه قرشاً اكثر.

وهكذا، بناءً على هذا السرّ، نفترض الآن امامنا لقمتان، لقمة منها من مادة مغذّية - كالجبن والبيض مثلاً - يُقدّر ثمنها بقرش واحد، واللقمة الاخرى حلوى من نوع فاخر يُقدّر ثمنها بعشرة قروش، فهاتان اللقمتان متساويتان قبل دخولهما الفم ولا فرق بينهما، وهما متساويتان كذلك من حيث إنماء الجسم وتغذيته بعد دخولهما الفم ونزولهما عبر البلعوم. بل قد يغذّي الجبن - الذي هو بقرش واحد - تغذية افضل وتنمية أقوى من اللقمة الاخرى. اذن ليس هناك من فرق الاّ ملاطفة القوة الذائقة في الفم التي لاتستغرق سوى نصف دقيقة. فليقدر إذن مدى ضرر الاسراف ويوازن مدى التفاهة في صرف عشرة قروش بدلاً عن قرش واحد في سبيل الحصول على لذة تستغرق نصف دقيقة!

وهكذا فان اثابة الحارس تسعة اضعاف ما يُقدّم الى حاكم القصر من هدايا تُفضي به لا محالة الى الغرور والجشع وتدفعه بالتالي الى القول: انما انا الحاكم. فمن كافأه بهبة اكثر ولذة أزيد دفعه الى الداخل، مسبّباً إخلال النظام القائم هناك، مضرماً فيه ناراً مستعرة وملزماً صاحبه الاستغاثة صارخاً: هيّا اسرعوا اليّ بالطبيب حالاً ليخفف شدة حرارتي ويطفئ لظى نارها.

فالاقتصاد والقناعة منسجمان انسجاماً تاماً مع الحكمة الإلهية، اذ يتعاملان مع القوة الذائقة معاملة الحارس، ويقفانها عند حدّها ويكافئانها حسب تلك الوظيفة. اما الاسراف فلأنه يسلك سلوكاً مخالفاً لتلك الحكمة، فسرعان ما يتلقّى المسرف صفعات موجعة، اذ تحدث الاختلاطات المؤلمة في المعدة التي تؤدي الى فقدان الشهية الحقيقيَة نحو الاكل، فيأكل بشهية كاذبة مصطنعة بتنويع الاطعمة مما يسبب عسراً في الهضم.

النكتة الثالثة

قلنا في النكتة الثانية آنفاً: ان القوة الذائقة تؤدي دور الحارس. نعم، هي كذلك عند الغافلين الذين لم يَسمُوا بعدُ روحياً والذين لم يتقدموا في مضمار الشكر والعروج في مدارجه. نعم إنه لا ينبغي اللجوء الى الاسراف - كصرف عشرة أضعاف الثمن، لأجل تلذذ تلك الحاسة الحارسة. ولكن القوة الذائقة لدى الشاكرين

حقاً ولدى اهل الحقيقة واهل القلوب واولي الابصار بمثابة راصدة وناظرة مفتشة لمطابخ الرحمة الإلهية (كما وضح ذلك في المقارنة المعقودة في الكلمة السادسة). وان ما يتم في تلك القوة الذائقة من عملية تقدير قيمة النعم الآلهية ومن التعّرف عليها بأنواعها المختلفة بما فيها من موازين دقيقة حساسة عديدة بعدد الاطعمة، انما هو لإبلاغ الجسد والمعدة، بما ينّم عن شكر معنوي.

فلا تقتصر وظيفة القوة الذائقة على رعاية الجسد رعاية مادية وحدها، بل هي ايضاً أرقى حكماً من وظيفة المعدة وأرفع منزلة منها، لما لها من رعاية للقلب والروح والعقل ومن عناية لكل منها، علماً أنها تستطيع ان تمضي في سبيل الحصول على لذتها - بشرط عدم الاسراف - انجازاً لمهمة الشكر الخالص المقدرة لها، وبنيّة التعرف والاطلاع على انواع النعم الإلهية بتذوقها والشعور بها بشرط مشروعيتهاوعدم كونها وسيلة للتذلل والاستجداء، اي اننا نستطيع ان نستعمل ذلك اللسان الحامل للقوة الذائقة في الشكر لاجل التفضيل بين الاطعمة اللذيذة.

واليكم هذه الحادثة اشارة الى هذه الحقيقة، وهي كرامة من كرامات الشيخ الكيلاني «قُدس سره»: كان لعجوز رقيقة لطيفة ابن وحيد يتربّى على يد الشيخ، دخلت تلك العجوز الموقرة ذات يوم على ابنها ورأت انه يأكل من كسرة خبز يابس أسمر مزاولاً رياضة روحية حتى ضعف ونحل جسمه. أثارت هذه الحالة شفقة والدته الرؤوم ورقّت لحاله فذهبت لتشتكيه الى الشيخ الكيلاني واذا بها ترى الشيخ يأكل دجاجاً مشوياً. ولشدة رقتها ولطافتها قالت: ايها الشيخ ان ابني يكاد يموت جوعاً وها انت ذا تأكل الدجاج؟! فخاطب الشيخ الدجاج قائلاً: «قم باذن الله» فوثب ذلك الدجاج المطبوخ الى خارج الوعاء بعد ان اكتمل دجاجاً حياً بالتئام عظامه. لقد نقل هذا الخبر بالتواتر المعنوي ثقات كثيرون(١) اظهاراً لكرامة واحدة من صاحب الكرامات المشهورة في العالم، الشيخ الكيلاني قُدس سرّه. ومما قاله الشيخ لتلك العجوز: متى ما بلغ إبنك هذه الدرجة.. فليأكل الدجاج هو الآخر.

---

(١) وقال اليافعي رضي الله عنه: صح بالسند المتصل الى الشيخ القطب عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى: أن أم شاب عنده دخلت عليه وهو يأكل في دجاجة، فانكرت أكله الدجاجة وإطعامه ابنها أرذل الطعام، فقال لها: اذا صار ابنك بحيث يقول لمثل هذه الدجاجة قومي بأذن الله فقامت ولها اجنحة وطارت بها حق له ان يأكل الدجاج. (الفتاوى الحديثية لابن حجر ص ٨٠)- المترجم.

فمغزى هذا الامر الصادر من الشيخ الكيلاني هو: متى حَكمت روحُ ابنك جَسَدَهُ وهيمن قلبُه على نفسه، وسادَ عقلُه معدته، والتمس اللذةَ لاجل الشكر.. عندئذ يمكنه أن يتناول ما لذّ وطاب من الاطعمة.

النكتة الرابعة

ان المقتصد لا يعاني فاقة العائلة وعوزها كما هو مفهوم الحديث الشريف «لا يعول من اقتصد»(١). اجل هناك من الدلائل القاطعة التي لا يحصرها العدّ بأن الاقتصاد سبب جازم لإنزال البركة، واساس متين للعيش الافضل. أذكر منها ما رأيته في نفسي وبشهادة الذين عاونوني في خدمتي وصادقوني باخلاص فأقول:

لقد حصلتُ احياناً وحصل اصدقائي على عشرة اضعاف من البركة بسبب الاقتصاد. حتى انه قبل تسع سنوات (٢) عندما أصرّ عليّ قسم من رؤساء العشائر المنفيين معي الى «بوردور» على قبول زكاتهم كي يحولوا بيني وبين وقوعي في الذلة والحاجة لقلة ما كانت عندي من النقود، فقلت لاولئك الرؤساء الاثرياء: برغم أن نقودي قليلة جداً الاّ انني املك الاقتصاد، وقد تعودت على القناعة، فانا أغنى منكم بكثير. فرفضتُ تكليفهم المتكرر الملح.. ومن الجدير بالملاحظة ان قسماً من اولئك الذين عرضوا عليّ زكاتهم قد غلبهم الدَّين بعد سنتين، لعدم التزامهم بالاقتصاد، الاّ أن تلك النقود الضئيلة قد كفتني – ولله الحمد – ببركة الاقتصاد الى ما بعد سبع سنوات، فلم يُرَق مني ماء الوجه، ولم يدفعني لعرض حاجتي الى الناس، ولم يفسد عليّ ما اتخذته دستوراً لحياتي وهو «الاستغناء عن الناس».

نعم ان من لا يقتصد، مدعوّ للسقوط في مهاوي الذلّة، ومعرض للانزلاق الى الاستجداء والهوان معنىً.

ان المال الذي يستعمل في الاسراف في زماننا هذا لهو مال غالٍ وباهظ جداً، حيث تدفع احياناً الكرامة والشرف ثمناً ورشوة له، بل قد تُسلب المقدسات الدينية،

(١) «ما عال من اقتصد» رواه احمد عن ابن مسعود (كشف الخفاء، ١٨٩/٢) وانظر ١٥٨/١ ايضاً.
(٢) المقصود سنة ١٩٢٦م. - المترجم.

ثم يُعطى نقوداً منحوسة مشؤومة، اي يقبض بضعة قروش من نقود مادية، على حساب مئات الليرات من النقود المعنوية.

بينما لو اقتصر الانسان على الحاجات الضرورية واختصرها وحصر همّه فيها، فسيجد رزقاً يكفل عيشه من حيث لا يحتسب وذلك بمضمون الآية الكريمة:

﴿ **ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ (الذاريات: ٥٨) وأن صراحة الآية الكريمة:

﴿ **وما من دابة في الارض الاّ على الله رزقها** ﴾ (هود:٦) تتعهد بذلك تعهداً قاطعاً.

نعم، ان الرزق قسمان:

القسم الاول: وهو الرزق الحقيقي الذي تتوقف عليه حياة المرء، وهو تحت التعهد الرباني بحكم هذه الآية الكريمة، يستطيع المرء الحصول على ذلك الرزق الضروري مهما كانت الاحوال، ان لم يتدخل سوء اختياره، دون ان يضطر الى فداء دينه ولا التضحية بشرفه وعزته.

القسم الثاني: هو الرزق المجازي، فالذي يسئ استعماله لا يستطيع ان يتخلّى عن الحاجات غير الضرورية، التي غدت ضرورية عنده نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد. وثمن الحصول على هذا الرزق باهظ جداً ولاسيما في هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني، اذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفاً راضياً بالذل، بل قد يصل به حد السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي، والتنازل الى تقبيل اقدام أناس منحطين وضيعين، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية بمقدساته الدينية التي هي نور حياته الخالدة. ثم ان الألم الذي ينتاب ذوي الوجدان من حيث العاطفة الانسانية – بما يرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيّم عليه الفقر والحاجة – يشوّب لذتّهم التي يحصلونها بأموال غير مشروعة، وتزداد مرارتها ان كانت لهم ضمائر. انه ينبغي في هذا الزمان العجيب الاكتفاء بحدّ الضرورة في الاموال المريبة، لانه حسب قاعدة «الضرورة تقدر بقدرها» يمكن ان يؤخذ باضطرارٍ من المال الحرام حدَّ الضرورة وليس اكثر من ذلك. وليس للمضطر ان يأكل من الميتة الى حدّ الشبع، بل له ان يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت. وكذا لا يؤكل الطعام بشراهة امام مائة من الجائعين.

نورد هنا حادثة واقعية للدلالة على كون الاقتصاد سبب العزة والكمال:

اقام «حاتم الطائي» المشهور بكرمه وسخائه ضيافة عظيمة ذات يوم واغدق هدايا ثمينة على ضيوفه. ثم خرج للتجوال في الصحراء، فرأى شيخاً فقيراً يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من الحطب والكلأ والشوك والدم يسيل من بعض جسمه.. فخاطبه قائلاً:

– ايها الشيخ، ان حاتماً الطائي يقيم اليوم ضيافة كريمة ويوزع هدايا ثمينة، بادرْ اليه لعلك تنال منه اموالاً اضعاف أضعاف ما تناله من هذا الحمل!!.

قال له ذلك الشيخ المقتصد: سأحمل حملي هذا بعزة نفسي وعرق جبيني، ولا أرضى ان أقع تحت طائل منّة حاتم الطائي.

ولما سُئل حاتم الطائي يوماً:

– مَن من الناس وجدتَهم اعزَّ منك واكرم؟.

قال: ذلك الشيخ المقتصد الذي لقيته في المفازة ذات يوم، لقد رأيته حقاً اعزّ مني واكرم.

النكتة الخامسة

إن من كمال كرم الله سبحانه وتعالى، أنه يُذيقُ لذّة نِعمه لأفقر الناس، كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان.

نعم ان اللذة التي ينالها فقير من كسرة خبز اسود يابس بسبب الجوع والاقتصاد تفوق ما يناله السلطان او الثري من اكله الحلوى الفاخرة بالملل وعدم الشهية النابعين من الاسراف.

ومن العجب حقاً ان يجرؤ بعض المسرفين والمبذّرين على اتهام المقتصدين بالخسّة.. حاشَ لله، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه، بينما الخسة والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاء ظاهري.

وهناك حادثة جرت في غرفتي في «اسبارطة» في السنة التي تم فيها تأليف هذه الرسالة، تؤيد هذه الحقيقة وهي:

اصرّ احد طلابي اصراراً شديداً على ان أقبل هديته التي تزن اوقيتين ونصف الاوقية (١) من العسل،خرقاً لدستور حياتي (٢)، ومهما حاولت في بيان ضرورة التمسك بقاعدتي لم يقنع، فاضطررت الى قبولها مرغماً على نية ان يشترك ثلاثةُ اخوةٍ معي في الغرفة فيها ويأكلوا منه باقتصاد طوال اربعين يوماً من شهري شعبان ورمضان المبارك، ليكسب صاحبه المُهدي ثواباً، ولا يبقوا دون حلاوة. لذا أوصيتهم بقبول الهدية لهم علماً انّي كانت عندي أوقية من العسل..

وبرغم ان اصدقائي الثلاثة كانوا على استقامة حقاً وممن يقدّرون الاقتصاد حق قدره، الاّ انهم - على كل حال - نَسوه نتيجة قيامهم باكرام بعضهم بعضاً ومراعاتهم شعور الآخرين والايثار فيما بينهم، وامثالها من الخصال الحميدة، فانفدوا ماعندهم من العسل في ثلاث ليالٍ فقط، فقلت مبتسماً:

- لقد كانت نيتي ان اجعلكم تتذوقون طعم العسل ثلاثين يوماً او اكثر، ولكنكم انفدتموه في ثلاثة ايام فقط.. فهنيئاً لكم!. في حين انني بت اصرف ما كنتُ املكه من العسل بالاقتصاد، فتناولته طوال شهري شعبان ورمضان، فضلاً عن انه اصبح ولله الحمد سبباً لثواب عظيم، حيث اعطيتُ كل واحد من اولئك الاخوة ملعقة واحدة منه (٣) وقت الافطار.

ولربما حَسِب الذين شاهدوا حالي تلك انها خسّة، واعتبروا اوضاع اولئك الاخوة في الليالي الثلاث حالة عزيزة من الكرم! ولكن شاهَدنا تحت تلك الخسة الظاهرية عزةً عاليةً وبركة واسعة وثواباً عظيماً من زاوية الحقيقة. وتحت ذلك الكرم والاسراف - ان لم يكن قد تُرك - استجداءً وترقباً لما في ايدي الآخرين بطمع وامثالها من الحالات التي هي أدنى بكثير من الخسة.

---

(١) الاوقية تساوي ١٫٢٨٠ كيلو. - المترجم.
(٢) وهو ان الاستاذ النورسي ما كان ليقبل الهدايا بلا مقابل. - المترجم.
(٣) اي ملعقة شاي كبيرة (ملعقة كوب). - المؤلف.

النكتة السادسة

هناك بون شاسع وفرق هائل بين الاقتصاد والخسة، اذ كما أن التواضع الذي هو من الاخلاق المحمودة يخالف معنىً التذللَ الذي هو من الاخلاق المذمومة مع أنه يشابهه صورة. وكما ان الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنىً التكبّر الذي هو من الاخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة.

فكذا الحال في الاقتصاد الذي هو من الاخلاق النبوية السامية بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبداً بالخسة التي هي مزيج من السفالة والبخل والجشع والحرص. بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعاً، الاّ ذلك التشابه الظاهري. واليكم هذا الحدث المؤيد لهذه الحقيقة:

دخل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو اكبر ابناء الفاروق الاعظم خليفة رسول الله ﷺ وأحد العبادلة السبعة المشهورين ومن البارزين بين علماء الصحابة الأجلاء، دخل هذا الصحابي الجليل يوماً في مناقشة حادة لدى تعامله في السوق على شئ لايساوي قرشاً واحداً، حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمانة والاستقامة اللتين تدور عليهما التجارة. في هذه الاثناء رآه صحابي آخر، فظنّ فيه شيئاً من خسّة فاستعظمها منه، اذ كيف يصدر هذا الامر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الارض. فتبعه الى بيته ليفهم شيئاً من احواله، فوجد أنه قضى بعض الوقت مع فقير عند الباب وتبادلا حديثاً في لطف ومودة، ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب اطراف الحديث مع فقير آخر هناك. أثار هذا الامر لهفة ذلك الصحابي فأسرع الى الفقيرين للاستفسار منهما:

ـ هلاّ تفهماني ماذا فعل ابن عمر حينما وقف معكما؟.

ـ لقد اعطى كلاً منا قطعة ذهب.

فراعه الامر وقال شدهاً: يا سبحان الله.. ما أعجب هذا الامر، انه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجَين اثنين عن رضىً دون ان يشعر به أحد، فسار نحو ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله:

– ايها الإمام: ألا تحل لي معضلتي هذه؟ لقد فعلتَ في السوق كذا وكذا وفي البيت كذا وكذا؟! فردّ عليه قائلاً:

– ان ما حدث في السوق هو نتيجة الاقتصاد والحصافة، فعلتُه صوناً للامانة وحفظاً للصدق اللذين هما اساس المبايعة وروحها وهوليس بخسّةٍ ولابيخل، وان ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقّته ومن سمو الروح واكتمالها.. فلا ذاك خسّة ولا هذا اسراف.

واشارةً الى هذا السرّ قال الامام الاعظم «ابو حنيفة النعمان» رضي الله عنه: «لا اسراف في الخير كما لا خير في الاسراف» أي كما لا اسراف في الخير والاحسان لمن يستحقه كذلك لا خير في الاسراف قط.

النكتة السابعة

ان الاسراف ينتج الحرص، والحرص يولّد ثلاث نتائج:

اولاها: عدم القناعة.

وعدم القناعة هذا يُثني الشوقَ عن السعي وعن العمل، بما يبثّ في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر، قاذفاً به الى احضان الكسل، فيترك المال الزهيد النابع من الكسب الحلال (١) ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع، فيهدر في هذه السبيل عزتَه بل كرامته.

النتيجة الثانية للحرص: الخيبة والخسران.

اذ يفوت مقصود الحريص ويتعرض للاستثقال ويُحرم من التيسير والمعاونة حتى يكون مصداق القول المشهور: «الحريصُ خائب خاسر».

ان تأثير الحرص والقناعة يجري في عالم الاحياء على وفق دستور شامل وسنّة مطردة فمثلاً:

---

(١) اذ بسبب الابتعاد عن الاقتصاد، يكثر المستهلكون، ويقل المستحصلون، ويبدأ الجميع يشدون نظرهم الى باب الحكومة، وحينها تنتكس وتتناقص الصناعة والتجارة والزراعة التي هي محور الحياة الاجتماعية ومدارها، وينهار المجتمع ويتدنى بدوره ويغدو فقيراً معدماً. ـ المؤلف.

ان وصول ارزاق النباتات المضطرة الى الرزق اليها هو لقناعتها الفطرية، وسعي الحيوانات بنفسها بالحرص وراء الحصول على رزقها في عناء ونقص، يبديان مدى الضرر الجسيم الكامن في الحرص، ومدى النفع العظيم الكامن في القناعة.

وان سيلان الحليب – ذلك الغذاء اللطيف – الى أفواه الصغار الضعفاء عامة ومن حيث لا يحتسبون بما يبدونه من قناعة ينطق بها لسان حالهم، وانقضاض الوحوش بحرص وجشع على ارزاقها الناقصة الملوّثة، يثبت ما ندّعيه اثباتاً ساطعاً.

وان اوضاع الاسماك البدينة البليدة التي تنم عن القناعة الباعثة لوصول ارزاقها اليها كاملة وعجز الحيوانات الذكية كالثعالب والقردة عن تحصيل غذائها كاملاً مع حرصها سعياً وراءها وبقاءها هزيلة نحيفة، ليبيّن كذلك مدى ما يسببه الحرص من المشقة والعناء ومدى ما تسببه القناعة من الراحة والهناء.

كما ان حصول اليهود على ارزاقهم كفافاً بطرق غير مشروعة ممزوجاً بالذل والمسكنة بسبب حرصهم وتعاملهم بالربا واتباعهم اساليب المكر والخداع، وحصول البدويين المتحلين بالقناعة على رزقهم الكافي وعيشهم العيش الكريم العزيز يؤيد دعوانا ايضاً تأييداً كاملاً.

كما أن تردّي كثير من العلماء [1] والادباء [2] بما يمنحهم ذكاؤهم ودهاؤهم من الحرص في فقر مدقع وعيش كفاف، وغناء اكثر الاغبياء العاجزين واثرائهم لما لهم من حالة فطرية قنوعة ليثبت اثباتاً قاطعاً: ان الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار لا بالاقتدار والاختيار. بل هو يتناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار. ذلك ان ارزاق الاطفال تتضائل وتبتعد ويصعب الوصول اليها كلما ازدادوا اختياراً وارادةً واقتداراً.

---

(١) سأل انوشيروان حاكم ايران العادل الحكيم بزرجمهر: لماذا يشاهد العلماء بابواب الامراء ولايُشاهد الامراء بابواب العلماء والعلم يفوق الإمارة؟

فأجاب: ذلك من علم العلماء، وجهل الامراء.

اي: ان الامراء لايعلمون قدر العلم، فلا يأتون ابواب العلماء لطلبه بينما العلماء يعلمون قدره، فيطلبون قيمته بابواب الامراء!

فهذا الجواب اللطيف تأويل ظريف لحرص العلماء النابع من ذكائهم المؤدي بهم الى الذل والفقر.
ـ خسرو.

(٢) هناك حادثة تؤيد هذا الحكم؛ أن الادباء في فرنسا يُمنحون وثيقة التسول لإجادتهم له.
ـ سليمان رشدي.

نعم، ان القناعة كنز للعيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص معدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: (القناعة كنز لايفنى) [١].

النتيجة الثالثة: ان الحرص يتلف الاخلاص ويفسد العمل الاخروي؛ لانه لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجه الناس واقبالهم اليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يبلغ الاخلاص التام قطعاً ولا يمكنه الحصول عليه. فهذه النتيجة ذات اهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة.

محصل الكلام: ان الاسراف ينتج عدم القناعة اي الطمع، اما الطمع فيُخبت وهج الشوق والتطلع الى العمل ويقذف بالانسان الى التقاعس والكسل، ويفتح امامه ابواب الشكوى والحسرة في حياته حتى ليجعله يئن دوماً تحت مضض الشكوى والسأم [٢]. كما انه يفسد اخلاصه ويفتح دونه باباً للرياء والتصنع فيكسر عزته ويريه طريق الاستجداء والاستخذاء.

اما الاقتصاد فانه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، استناداً الى الحديث الشريف: (عزّ مَن قنع وذلّ مَن طمع). كما انه يشحذ الشوق بالسعي والعمل ويحث عليهما ويسوق سوقاً الى الكدّ وبذل الجهد فيهما؛ لانه اذا ما سعى المرء في يوم ما وتقاضى اجره مساءً فسيسعى في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه. اما المسرف فانه لايسعى في يومه الثاني لعدم قناعته وحتى اذا سعى فانه يسعى دون شوق.

وهكذا فان القناعة المستفيضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى، فيظل الانسان في شكر وحمدٍ مدى حياته. وبالقناعة لا يتلفت الى توجه الناس اليه لإستغنائه عنهم، فينفتح امامه باب الاخلاص وينغلق باب الرياء.

ولقد شاهدت الاضرار الجسيمة والخسائر الفادحة التي تسفر عن الاسراف وعدم الاقتصاد شاهدتها متجسدة في نطاق واسع ممتد وهي كما يأتي:

(١) حديث (القناعة مال لاينفد وكنز لايفنى) رواه الطبراني في الاوسط والعسكري عن جابر، والمشهور (القناعة كنز لايفنى) وفي القناعة احاديث كثيرة. انظر كشف الخفاء ١٠٢/١ وتمييز الطيب ص ١١٨.

(٢) نعم، اذا قابلت مسرفاً فستسمع منه حتماً الشكاوي العريضة، ومهما كان غنياً فلسانه يشكو لا محالة، بينما اذا قابلت فقيراً قانعاً فلا تسمع منه الآ الحمد والشكر لله. ـ المؤلف.

جئت الى مدينة مباركة – قبل تسع سنوات – كان الموسم شتاءً فلم اتمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الانتاج في تلك المدينة، قال لي مفتيها رحمه الله: ان أهالينا فقراء مساكين. أعاد قوله هذا مراراً. أثّر فيّ هذا القول تأثيراً بالغاً مما أجاش عطفي، فبت استرحم وأتألم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنوات. وبعد ثماني سنوات عدت اليها وهي في اجواء الصيف، وأجلت نظري في بساتينها فتذكرت قول المفتي رحمه الله فقلت متعجباً:

– سبحان الله! ان محاصيل هذه البساتين وغلاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيراً، وكان حرياً بأهاليها ان يكونوا أثرياء جداً! بقيت في حيرة من هذا الامر.. ولكن ادركت بحقيقة لم تخدعني عنها المظاهر، فهي حقيقة استرشد بها في ادراك الحقائق، وهي: ان البركة قد رفعت من هذه المدينة بسبب الاسراف وعدم الاقتصاد. مما حدا بالمفتي رحمه الله الى القول: ان اهالينا فقراء ومساكين، برغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الموارد.

نعم، انه ثابت بالتجربة وبالرجوع الى وقائع لا تحد بأن دفعَ الزكاة، والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة. بينما الاسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة.

ولقد فسّر «ابن سينا» وهو افلاطون فلاسفة المسلمين وشيخ الاطباء واستاذ الفلاسفة فسّر هذه الآية الكريمة: ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا** ﴾. من زاوية نظر الطب فقط بالابيات الآتية:

جمعتُ الطبَّ في بيتين جَمعــاً　　وحُسن القولِ في قِصَر الكلام
فقلّل إن اكلتَ وبعد أكــل　　تَجنّب، والشفاءُ في الإنهضام
وليس على النفوس أشــدُّ حالاً　　من إدخال الطعامِ على الطعام. [1]

واليكم هذا التوافق الغريب الباعث على الحيرة والجالب للعبرة:

انه مع قيام خمسة وستة من المستنسخين المختلفين – ثلاثة منهم لا يتقنون الكتابة– باستنساخ «رسالة الاقتصاد» فقد توافق كل (واحد وخمسين) ألفاً من ألفات كل نسخة – خالية من الدعاء – وكل (ثلاثة وخمسين) ألفاً – مع دعاء – رغم

(١) اي ان أضر شئ للجسم هو عدم اعطاء مهلة بين وجبات الطعام تتراوح بين اربع او خمس ساعات، او املاء المعدة بادخال الطعام بالتعاقب لأجل التلذذ. ـ المؤلف.

اختلاف امكنة اولئك المستنسخين واختلاف النسخ التي كانوا ينقلون منها واختلاف خطهم في الكتابة ومع عدم التفكر في تلكم الألفات إطلاقاً!.

فان توافق عدد الألفات مع تاريخ تأليف «رسالة الاقتصاد» واستنساخها وهو بالتاريخ الرومي واحدة وخمسون (١٣٥١) وبالتاريخ الهجري ثلاث وخمسون (١٣٥٣) لايمكن ان يحال ذلك الى الصدفة دون ريب، بل هو اشارة الى صعود البركة الكامنة في (الاقتصاد) الى درجة الكرامة. وانه لحرّي حقاً ان يطلق على هذا العام «عام الاقتصاد».

نعم لقد اثبت الزمان فعلاً هذه الكرامة الاقتصادية وذلك عندما شهدت البشرية بعد عامين الحرب العالمية الثانية... تلك الحرب التي بثت الجوع والتخريب وضروب الاسراف المقيت في كل انحاء العالم مما أرغم البشرية على التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوة.

﴿ سُبحانك لاعِلمَ لَنا إلاّ مَا عَلمتَنا اِنكَ اَنتَ العَليمُ الحكيمُ ﴾